١١ ـ تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

الفصـــل الثانى

وأمضى عدى فترة من الزمن فى سورية وخاصة فى دمشق حيث يقال إنه نظم فيها أول قصيدة . ولما مات أبوه حينئذ هجر مقامه فى الحيرة واهتم بالصيد والقنص وسائر فنون اللهو والتسلية . وكان يزور « المدائن » بين فترة وأخرى ليشرف على أعمال التحرير ، وفى فترة زيارته للحيرة علق فؤاده هند ابنة النعمان التى كانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشرة سنة . وإن القصة التى يرويها الأغانى [1] لفى غاية الغرابة حتى لا يمكن التجاوز عنها ؛ وتتلخص فى أن هنداً كانت أجمل نساء أهلها وزمانها ، خرجت فى خميس الفصح تتقرب فى البيعة فى أيام المنذر ، ودخلها عدىّ يتقرّب ، وكانت عبلة الجسم فرآها عدى وهى غافلة وتأملها ولم يقل لها جواريها ذلك ، وإنما قبلن هذا من أجل أمة لهند يقال لها مارية ، كانت قد أحبت عدياً ، فلم تدر كيف تجىء له ، فلما رأت هند عدياً ينظر إليها شق عليها ذلك وسبت جواريها ، ولكنها وقعت فى نفس عدىّ ، فلبث حولاً لا يخبر بذلك أحداً حتى أخبرت مارية هنداً ببيعة دومة وما فيها من الرواهب وحسن بنائها ، فسألت أنها الاذن فأذنت لها ، وبادرت مارية إلى عدى فأخبرته الخبر فأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ودخلوا البيعة ، فلما رأته مارية قالت لهند : « انظرى إلى هذا الفتى فهو أحسن من كل ما ترين من السرج وغيرها » فقالت هند : « ومن هو ؟ » فقالت : هو عدى بن زيد ، ثم حرضتها على الاقتراب منه وسألتها أن تكلمه ، ثم انصرفتا وقد تبعته هند بنفسها وانصرف بمثل حالها ، ثم عرضت له فى الغد فقال لها : « لا تسألينى شيئاً إلا أعطيتك إياه » فعرفته أنها تهواه وحاجتها الخلوة به على أن تحتال له فى

(١) الأغانى ج ٢ ص ٢٢ س ٣ وما يليه

هند وعاهدته على ذلك ، وبادرت إلى النعمان فأخبرته خبرها وذكرت أنها شغفت به ، وأنه إن لم يزوجها إياه افتضحت فى أمره أو ماتت . فقال لها : « ويلك وكيف أبدؤه بذلك ؟ » . فقالت : « هو أرغب فى ذلك من أن تبدأه » ، وأتت عديا فأخبرته الخبر وقالت « ادعه فاذا أخذ الشراب منه فاخطب إليه فأنه غير رادّك » قال : « أخشى أن يغضبه ذلك » قالت : « ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه » فصنع عدى طعاماً ، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان ، فأجابه وزوجه وضمّها إليه بعد ثلاثة أيام [1]

وعند موت المنذر الرابع أيّد عدى حق النعمان الذى كان من قبل تلميذه ثم غدا حماه ، فى عرش الحيرة ، ولقد تكللت الخدعة التى مثلها فى هذا الحادث بالنجاح التام ، ولكنها كلفته حياته [2]

فعزم على الأخذ بالثأر أتباع «أسود بن المنذر» إذ فشل صاحبهم فى نيل العرش ، ولكن مكائدهم أثارت شكوك النعمان ضد صانع العرش له . فألقى عديا فى غياهب السجن حيث ظل يرسف فى القيد ردحاً طويلاً حتى قتله النعمان حينما توسط كسرى أبروز [3] فى إطلاق سراحه [4]

وترك عدى غلاماً يدعى زيداً أشار كسرى أبرويز بأن يخلف

(١) كتب إلى صديقى وزميلى الأستاذ بيفان يقول « إن قصة زواج عدى من ابنة الملك قد بنى بعضها على بيت يذكر فيه الشاعر نفسه كأنى صلته بالبيت المالك صلة زواج (الأغانى ٢ : ٢٦) وتارة أخرى على بيت آخر يذكر فيه بيت هند (الأغانى ٢ : ٣٢) ولكن هذا هذه كانت امرأة بدوية وليست ابنة الملك» أما البيت الأول (أغانى ٢ : ٣٦ س ٥) فهو :

أجل نعمى ربها أولكم ودنوى كان منها واصطبارى

وأما البيت الثانى الذى يذكر فيه بيت هند (أغانى ٢ : ٣٢ س ١) فهو :

عرجا بى على ديار لهند ليس إن عجتما المطى كثيرا

(٢) حينما استدعى هرمز أولاد المنذر إلى المدائن ليختار ملكا من بينهم اختلى عدى بهم وقال لهم « إذا سألكم كسرى : أتكفونى العرب ؟ فقولوا نعم ، فاذا قال لكم فان شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه ؟ فقولوا إن بعضنا لا يقدر على بعض ليهابكم » وجاء إلى النعمان وقال له « أما أنت فقل له إن عجزت عنهم (أى عن إخوته) فانى عن غيرهم لأعجز » فلما سمع هرمز ذلك منهم عقد للنعمان على العرش وألبسه التاج

(٣) هو كسرى بن هرمز

(٤) يرى القارئ شرحا وافياً لهذه الناحية فى الطبرى

أباه فى إدارة التحرير العربى فى الديوان الملكى بالمدائن ، ولما تصالح مع النعمان لم ينس ثأره القديم ولكنه أخذ يتحين الفرصة ويتأهب لها ؛ وكان ملوك الفرس ذوى دراية بمحاسن النساء فأذا أرادوا امرأة بعثوا من يذيع طلبتهم وما يتوفر فيها من محاسن جثمانية وخلقية ، ولكنهم لم يكونوا قد فكروا حتى ذلك الحين فى نساء بلاد العرب ظناً منهم بأنها خالية من أية امرأة جميلة حوت من الصفات ما طلبوه ، فوجد زيد إذ ذاك الفرصة سانحة ، فجاء كسرى وقال له : « رأيت أيها الملك أنك كتبت فى نسوة ، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمه وأهله كثير فابعثنى وابعث معى رجلا من حرسك يفقه العربية » فبعث معه رجلا جليداً ، ثم دخلا الحيرة ثم وصف للنعمان طلبة الملك ، فقال لزيد والرسول يسمع : « أما فى عين السواد ما تبلغون به حاجتكم ؟ » فقال الرسول لزيد : « ما العين ؟ » قال : « البقر » ثم رجعا إلى كسرى فقال لهما : « أين الذى كنتما خبرتنى به ؟ » فقال له الرسول : « قال النعمان أما فى بقر السواد ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟ » فعرف الغضب فى وجهه ، ثم بعث إليه كسرى فقيده وبعث به إلى خانقين ، فلم يزل فى السجن ، ثم أمر بقتله فقتل ووطأته الفيلة[1]

وإن الشواهد المنقولة إلينا لتظهر النعمان الثالث حاكما مستبداً زير نساء مولعاً بالخمر والغناء ، كما كان مشجعاً لكثير من الشعراء وخاصة النابغة الذبيانى الذى فر هاربا من الحيرة لفرية كاذبة . وإن هذه القصة وأخرى اتهم فيها الشاعر المنخل لتلقيان شعاعا نستطيع على هديه أن نتعرف حياة النعمان الخاصة ، فلقد تزوج امرأة أبيه المتجردة أجمل نساء عصرها ، وبينما كان هو يواليها كل حبه كانت هى تحب غيره . وقد اتهم فيها النابغة لنظمه قصيدة يصف فيها محاسن الملكة ويذكر فيها نواحى خاصة دقيقة ، ولكن الحقيقة هى أنها كانت والمنخل اليشكرى يتبادلان الحب ويجرعان كؤوس الهوى ، وقد فاجأهما النعمان ذات يوم على غير ماتهوى ؛ ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يرى المنخل . ومن هنا نشأ المثل القائل « حتى يعود المنخل[2] » وبالرغم مما يقال من أن

(١) راجع هذه القصة بأكملها فى الطبرى ج ١ ص ١٠٢٤ — ١٠٢٩ ، وفى ترجمة نلدكه ٣٢٤ — ٣٣١ وابن قتيبة فى : Chrestamathy لبرو ص ٣٢ — ٣٣

(٢) وهو أشبه بالمثل الانجليزى :
« Until the Comming of the Coqcigrues »

كثيراً من ملوك الحيرة كانوا مسيحيين فان الشك يحتك فى الصدور عما إذا كان أحدهم — سوى النعمان الثالث — يستحق هذا اللقب ؛ وكان اللخميون بعكس غالبية رعيتهم عريقين فى الوثنية . أما تعاليم النعمان فقد هيأته للنصرانية ، كما أن هدايته — كما تؤكد القصة — كانت على يد رائده عدى بن زيد

* * *

يذكر النسابة المسلمون أن الغساسنة — سواء المقيمون منهم فى المدينة أو من جرى العرف بتسميتهم بغساسنة الشام — من ولد عمرو بن عامر المزيقيا الذى كان قد باع أملاكه فى اليمن وهاجر على رأس جمع غفير من سكانه قبيل انفجار سد مأرب ؛ ويعتبر ابنه جفنة عادة مؤسس الأسرة ، أما عن تاريخهم البدائى فالثابت منه ضئيل جداً لا يبل ظمأ الباحث . ومما يذكر عنهم أنهم دفعوا الجزية للضجاعمة وهى أسرة من نسل صليح الذى كان حاكما على حدود سورية تحت رعاية الروم . وتبع ذلك صراع عنيف خرج منه الغساسنة ولواء النصر يرفرف فوق رءوسهم . ومنذ ذلك الحين تراهم قد استقروا فى هذه الأقاليم كممثلى السلطة الرومانية ذوى ألقاب رسمية كأشراف وقواد ، تلك الألقاب التى أبدلوها هم والعرب الذين حولهم بكلمة « ملك » كما هى العادة الشرقية . « وأول من ملك الشام من آل جفنة الحرث بن عمرو ابن محرق ، وسمى محرقا لأنه أول من حرق العرب فى ديارهم ويكنى أبا شمر ؛ ثم ملك بعده الحرث بن أبى شمر وهو الحرث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين ، وكان خير ملوكهم وأيمنهم طائراً وأبعدهم مغاراً ، وأشدهم مكيدة وكان قد غزا خيبر[1] فسبى من أهلها ثم أعتقهم ، وكان قد سار إليه النذر بن ماء السماء فى مائة ألف فوجه إليهم مائة رجل فيهم لبيد الشاعر وهو غلام ، وأظهر أنه إنما بعث بهم لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه وقتلوا من معه فى الرواق وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقتل بعض ، وحملت خيل الغسانيين على عسكر النذر فهزموهم وكانت له بنت يقال لها حليمة كانت تطيب أولئك الفتيان يومئذ وتلبسهم الأكفان والدروع ، وفيها جرى المثل « ما يوم حليمة بسر »[2]

(يتبع) حسن حبشى

(١) التى تقع فى شمال المدينة
(٢) Freytag : Arabum Proverbia, Vol II,P. 611